قصيدة

أبـــوي

يونس بن مرهون البوسعيدي

صعقتني وفاة أبي رحمه الله تعالى وأدخله فسيح جناته، واللبُّ ذاهل عن التصديق لولا الانصياع للإيمان بما قدر الله، هذا الذهولُ أخرسني عن تحبير ما يجيش في النفس، بما يُرضي من القول، حتى اقتنعتُ بِبُويتات تتناثر مثل نفثة مصدور، حتى ألزمني بعض أفراد العائلة الكريمة بما يمكن القول، وعدّوا ذلك من البرّ بأبي رحمه الله، فاستسلمتُ مرةً أخرى لما استرسل من الكلام طوعَ الخاطر.

أبي، كـل شيءٍ بعد موتـكَ هيّنُ
حيـاةٌ تبقّـتْ كالظِـلالِ رتيبـــةٌ
ولـولا فـؤادٌ مِنْ أثيـــركَ حِسُّـــهُ
فلا كوكـبٌ أخشـى تصادمَـهُ ولا
ولا موطـنٌ يخضـرُّ، قبرُك موطني
ولا شـيء إلّا الذكريـاتِ كأنهـا
تزور كمثـل الشـوك في عنق وردةٍ
وفي كل ركـنٍ منك في البيت فَوْحةٌ
لقد حاصرتْنـي الذكريـاتُ كأنهـا ال
تموتُ أمامـي، ما قبضْتُكَ يا أبي؟!
وكيف يهيلون الثـرى فوق كعبةٍ؟!
أأنفضُ كفّي يا أبـي منـكَ مؤمنًا
يرى اللبُّ هذا، ليـت قلبـي عيونُهُ
تبقّـتْ حكايـا يـا أبي لَـمْ نُتمَّهـا
تعـال نتـمُّ الحكْـيَ، مـا زال عندنـا
وقـد بقـيَ الليـلُ الأخيـرُ، وإننـي

فلا ثَـم مـا يُخشـى، ولا مـا يُطمئنُ
وقد بهتتْ، لا شـيء يُغنـي ويُسمنُ
لما كـان نبضًـا فـي حياتي يُلـوّنُ
معاركُ أخشاهـا لصـدريَ تطحـنُ
وإنّ أبـي لـي فـي حيـاتِي موطـنُ
تـزورُ تعـزّي، وهـي حـزنى تؤبّنُ
أشمّ شذاها بينمـا الشـوقُ يطعنُ
وكنتَ إذا تمشـي بـه فاح سوسنُ
هواءً، ويـا هـذا الحصـارُ المهيمـنُ
أنا مَنْ أنـا لمّـا تركتُكَ تُدفَنُ؟!
أزفُّ غمامًـا أنـت فيهـا تُكفّـنُ
بعدليّة المـوتِ الـذي ليس يهدنُ
وبي حـزنٌ يعقوبٍ، أللحزنِ أعينُ؟!
نُطيـلُ بهـا ضحكاتنـا ونُـدوزنُ
من الحكْيِ زريابٌ، من الشوق أغصُنُ
على الباب بالأشواق جئتُ، أتأذنُ؟!

فعُـدْ ليَ من تلـك البرازخ، واحكِ لي
عن الموتِ؛ أنت الفيلسوفُ المُلقّنُ

وفسّـرْ لـي الغيـبَ اللَّدُنيّ حكمةً
فهارسُـــهُ بالمعجـــزاتِ تُعنـــوَنُ

أبي يا أبـي، أشتقتَ لي مثلما دمي
بما قد جرى فيه من الشوق مدمنُ؟

كبرتُ أبي مُذ يـوم موتـكَ فجأةً
وصرتُ أبي في الحُزنِ والعـمْرِ أطعنُ

وعاودني خوفي الطفـوليُّ، مـا أنـا
بموتـكَ طفـلٌ فوضـويٌّ وأرعـنُ

كأنكَ ينبـوعُ الغضـارات يـا أبي
فبِزكـةُ أيامـي بمـوتـكَ تأسـنُ

كأنْ كِسَـــفٌ منـي تساقـطُ بغتـةً
وبعد أبي لا شيء في الأرض يُوزَنُ

فراغٌ سديمـيٌّ تمـدد في دمـي
بموتِكَ؛ أو قُـل فـي دمي هو يُحقنُ

إذا جاء يـومٌ صـرتَ أبعـدَ يا أبي
كأنّـك فـي ركـب الأساطيرِ تسفنُ

تُبشِّرُكَ الرؤيـا، فكانـت ضمـادةً
كـأمِّ شهيـدٍ، وهـو يُنعـى تُدنـدنُ

رفيقُ النواميـس التـي قـد تلألأتْ
أبـي كـان إسلامًـا لنـا يتأنسَنُ

وكـان مقيمًـا للصـلاةِ يُحبُّهـا
وتحسبُهـا فـي خافقيـه تـؤذِّنُ

وكان تقيّا محسنًا لـفّ ثوبَـهُ النقيّ
وفـي خلواتـه ليـس يختـنُ

فيا حامليـه فـوق أكتافكـم كمـا
يُســاقُ غمـامٌ انظـروهُ سيهتـنُ

لعمـر أبـي، إن الصحابـة قِلـةٌ
ونحـنُ بِدهـرٍ كـلُّ مـا فيه يَفتنُ

فمـا الدِّينُ والتقوى لِحَي وعمائمًا
ولا الزُّهدُ أنْ يبـدو عليـكَ التمسكنُ

حبيبي الذي قد ماتَ؛ في اليأسِ حيلتي
إذا لـم يكـن قلبـي بموتـكَ يؤمنُ

أناديكَ ما بيـن اللحـود ولـم تُجِبْ
وتركُـك مـا بيـن اللحـود لَمُحزِنُ

تهينمُ لـي هـذي المقابـرُ أنـه
إذا تُؤلَـفُ الأرواحُ كـان التمـدُّنُ

حيـاتِ أحياهـا لِأُخـرايَ مـا أنـا
بِدنيـايَ إلّا مضغـةٌ تتعفـنُ

أبي كـم ذكـرتَ المـوتَ، حتى كأنه
حبيـبٌ إلـى ميعـادِهِ تتحيّـنُ

بموتكَ عاشـوراءُ عنـدي مقدّسٌ
كـأن حُسَيْنًـا آخـرا فيـه يُعلَـنُ

فيـا أيهـا الفـذُّ الكبيـر المعـظّ
ـم المفـدّى وفي تبجيلـه أتفنّنُ

ديـوني كثيـراتٌ لِيـرّكَ يـا أبـي
وأنّـى يـوفّي الدّيـن مَـنْ يَتديّـنُ

مخـرتَ أبـي بحـر الحيـاةِ مكافحًا
ومِلـؤُك بالله العظيـم التيقـنُ

وخُضْتَ أبـي كـل المعـارك باسمًا
وكنتَ تُري الشجعان كيف تشيطنوا

وذُدْتَ عـن القُطـر العمـانيّ باسلًا
وغيرك مِـنْ تحريكـة الظِلّ يجبنُ

يقـول خليـلاك الذيـن تخندقـوا
بِ»حيْرونَ» كانوا في حماك تحصّنوا

لك الرايةُ الحمراءُ بالنصـر خُضّبـتْ
بِهامـةِ أعـداءٍ بِخـزيٍ تُطيَّـنُ

وفاحتْ كريـح المسـك عنـك مأثرٌ
تخبّئُها، والذِكْـر للمـرء ألسـنُ

تناسلَـك الأمجـاد مـن عهـد آدم
ونسْلُك للمجـد السمـائيّ مخـزنُ

أُرتِّبُ فيـك الدمـعَ، لَـمْ أنطفـئْ به
جديـرٌ بجبرائيـلَ عنـك يُـدوّنُ

كمثْـلِ سحـاب الأفق غير مشذّبٍ
ولو أنْ يقولـوا عـادةٌ منـه يرطـنُ

ومالـيَ لا أبكـي عليـكَ، وإننـي
بكيـتُ علـى روحـي وإنـك أثمـنُ

إلهـيَ زِدنـي عـن حبيبـي بشـارةً
لَعلّـي بتريـاقِ البشـارةِ أسكـنُ

إلهـي تجـاوزْ عنـه واغفـرْ ذنوبـه
بأسمائك الحسنـى، وإنك محسـنُ